حُســـــنُ الابتـــــدا والخِـــتـام

"المفهـــــومُ والتطور"

بحث مقدم من

أحمد حسن جاسم

المقدمـــــــــة:

الحمد لله رب الأكوان ورب السموات والعالمين الأحياء والأموات والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد الناطق بالحق وعلى آلة وصحبه المنتحبين وسلم تسليما، وبعد:

يبقى النص وليدا للكتابة فهي أصل والنص فرع، ولهذا الفرع أقساما وتكوينات، وهي التي تشكل جسد النص المُدَونْ." ولمّا كان النص مدونة هامّة، اكتسب على مر العصور هالة من الاعتبار بلغت حد التقديس أحينا. ولمّا كانت هذه المدونة شاملة لكل مناحي حياة الإنسان، اهتمت بها علوم كثيرة، فدرسها المؤرخون وعلماء الآثار، وحللها علماء الاجتماع والنفس والأدباء كل حسب أهدافه وأغراضه "[1]، والتحليل قاد الباحثين إلى معرفة ودراسة أجزاء النص من حيث الشكل الخارجي والمضمون، وهذا بدوره يقود إلى أهمية دراسة مداخل النصوص من حيث بداياتها، مداخلها وعتباتها إلى خواتيمها والبحث في جماليات اللغة التي شكلت تلك النصوص عبر إبداع وبراعة الكتاب، وهم ينسجون قصائدهم وخطبهم، وكيف يؤسسون نصوصهم منذ لحظة الكتابة إلى اكتمال النص ونضوجه ووصوله إلى المتلقي.

من هنا أتت هذه الدراسة التي تشتغل على أهمية دراسة مداخل النصوص وهي تشكل علاقات جزئية بينها وصولا إلى خواتيمها وذلك لما لهذه العناصر من أهمية بالغة في تكوين النصوص من حيث المضمون المعنوي والدلالي على كافة أشكالها وأنواعها، فبداية النص هي مفتاح الدخول إلى عالمه وإلى نفوس المتلقين، وهي التي تستهوي الأنفس لحظة طرق الأسماع، أو الشروع بعملية القراءة.

إنّ العنوان مدخل، والجملة الأولى مدخل، وإن لحظة قراءتهما تمثل الولوج الأول للعمل الأدبي، ومنه يتم معرفة براعة الكاتب وقدرته على الصياغة، مرورا بالأجزاء الأخرى وصولا إلى خواتيم الجمل بدلاتها المعنوية، فمرة تكون قافية في شطر أو بيت في قصيدة أو حكمة نسجها الكاتب ختم بها خطبته أو معلومة هامة وردت في رسالة موجهة إلى فرد أو مجموع.

لقد أولى علماء البلاغة لهذين الضربين من علوم البديع أهمية بالغة، وذلك لما يمثلانه من تجسيد حقيقي لتجربة أي شاعر أو كاتب وهما مفتاح بقاء أثره بين الناس، لذلك ينصح اللغويون والبلاغيون الكُتَّاب والشعراء بالعناية

[1] محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته، منشورات الاختلاف الجزائر، ص ١٦ ط الاولى ٢٠٠٨م.

الدقيقة باختيار مقدمات ابتدائية حسنة جزلة سهلة الفهم تستهوي المتلقي وصولا إلى الخواتيم التي تبقى عالقة بالذهن.

وفي ضوء هذا المفهوم السابق أخذ البحث دراسة تلك الفنون البديعية مطلعا على ما قاله العلماء، مفردين التعاريف اللغوية والاصطلاحية لكل منهما ومتابعة تطورهما من القدماء إلى المحدثين، إنبنى البحث على مبحثين فكان الأول "حسن الابتداء (الاستهلال) المفهوم والتطور، ومن ثم أهمية حسن الابتداء، وأيضا حد الابتداء وحجمه وشروطه، فيما اهتم المبحث الثاني في" حسن الختام المفهوم والتطور وكذلك تعدد تسمياتها وشروطها.

ولا يخفى على المُطَّلِع أن هذين الضربين "من وجوه الأداء البديعية المعنوية والتي من ضمنها الطباق، المقابلة، مراعاة النظير، الرصد، التورية، الخ..." [١]، وهنالك دراسات بديعية إهتمّت كثيراً بهذه الأساليب، وتم إفراد كثيرٍ من الدراسات عن المستهلات والخواتيم" فلقد احتل موضوع الاستهلال مساحة واسعة من مؤلفات نقادنا حيث تناولوا هذا الموضوع بالعرض، والتحليل، فأناروا غوامضه بشيءٍ من التفصيل"[٢]

تجدر الإشارة ومن وجهة نظر الباحث، إلى أن تخصيص الدراسة حول هذه الجزئية النصية من الآداب تدعو إلى ضرورة دراستها ومراقبة تطورها منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى فترات الحداثة وما بعدها كونها ستقوم بعملية تمييز بالغة الأهمية حول براعة الكُتَّاب في إتقان فنون الكتابة .

الباحث

[١] صدام حسين محمود، مقامات بديع الزمان المهذاني بين الصنعة والتصنيع، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العاليا جامعة النجاح الوطنية، ص ٦٦ سنة .
[٢] شذى عبدالحكيم الرواشدة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٦ ص ٤

المبحث الأول

- **حسن الابتداء (الاستهلال)**
- **أولا المفهوم**
- **ثانيا التطور**
- **أهمية حسن الابتداء**
- **حجم الابتداء وحدّهِ**
- **شروط الابتداء**

المبحث الأول

حسن الابتداء (الاستهلال) المفهوم والتطور

شكل حسن الابتداء (الاستهلال) أهمية كبيرة لدى المهتمين بدراسة علوم البديع، فهو المطلع الأول والباب الأولى للوصول إلى روح المعنى، وهو السُلّمة الأولى لدخول عوالم النص، وهو مفتاح فك مغاليق النص، كونه المدخل الآخذ إلى سبر أغوار النص بعد أن يطرق الأسماع ويهيأ الأنفس لتلقيه، وعند تفسير المعنى لغويا تتضح الكثير من المفاهيم التي تؤدي إلى الفهم الحقيقي، فالابتداء من حيث

المعنى اللغوي :

وأصل المصطلح مأخوذ من الفعل بدء، ومعناه كما أورده ابن منظور في معجم لسان العرب " والبدء فعل الشيء أولّ، ويقال لك : والبَدْء: فِعْلُ الشيءِ أَوَّلُ. بَدأَ بهِ وبَدَأَهُ يَبْدَؤُهُ بَدْءاً وأَبْدَأَهُ وابْتَدَأَهُ. ويقالُ: لكَ البَدْءُ والبَدْأَةُ والبُدْأَةُ والبَدِيئةُ، وبديتُ الشيء قدمته، والبدءُ الأول، وقولهم : افعله بادي ببدء، وباديء الرأي أوله وابتدائه " [(١)]. وهو من أسماء الله الحسنى كما أوردها أبن منظور" في أسماءِ اللّهِ عزّ وجل المُبْدئ: هو الذي أنْشَأَ الأشياءَ واخْتَرَعَها ابْتِداءً من غيرِ سابقِ مثال، والبَداءة والبُدآءة بالمدِّ والبَدَاهةُ على البدلِ أي لكَ أنْ تَبْدَأَ قبل غيرك في الرَّمْي وغيرهِ. وحكى اللحياني: كان ذلكَ في بَدْأَتِنا وبِدْأَتِنا، بالقصرِ والمدِّ، والبَدِيئةُ والبَداءة. وبَدِيتُ بالشيءِ قَدَّمتُهُ، أنْصاريّةٌ. وبَدِيتُ بالشيءِ وبَدأتُ: ابْتَدَأتُ. وأبْدَأتُ بالأمْرِ بَدْءً: ابْتَدأتُ به. وبَدأتُ الشيءَ: فَعَلْتُهُ ابْتِداءً.

المعنى الاصطلاحي:

ويعني حسن الإبتداء، إصطلاحاً، إجادة الشاعر في اختيار ابتداء حسن ومطلع مبتكر لقصيدته وهو كما " سماه العلامة الشهاب محمود (١٢١٧-١٢٧٠ هـ)، حسن الإبتداءات وقالَ : هذه تسمية ابن المعتز (٢٤٧ــ ٢٩٦ هـ) وأراد بها ابتداءات القصائد، وقد فرّع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه بينة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده"[(٢)].

[(١)] ابن منظور، معجم لسان العرب، تحقيق د احمد سالم الكيلاني و د حسن عادل النعيمي، مركز الشرق الاوسط الثقافي، ج ٢ ص ٤٩ ــ ٥٠ ط أولى ٢٠١١م.

[(٢)] عائشة الباعونية، البديعية الكبرى وشرحها، تحقيق ودراسة د . السيد حمدان سعد، دار النابغة للنشر والتوزيع، ص٦ من مصنف الكتاب، الطبعة الاولى ٢٠١٥م.

فحسن الاختيار لمدخل النص يعني براعة وابتكاراً تعكس إبداع القائل في نسيج كلامه إن كان شعرا أو نثرا، وذكر مؤلف كتاب (روضة الفصاحة) ابو عبد الله محمد بن بكر الرازي (ت ٣٥٣ هـ)، في الباب السابع والثلاثين تحت مصطلح المطلع: "وهو أن يبتدئ الشاعر في أول شعره، والكاتب في أول رسالته، بلفظ بديع مصنوع، ومعنى لطيف مطبوع، ويحترز من كلمات يُتطير بها، أو يكون فيها ركاكة، فإن المطلع أول ما يقرع وهو ينبه بذلك الأسماع . "[١] وورد وصف الابتداء في كتاب العمدة لأبن رشيق القيرواني(ت ٤٥٦ هـ) على أنه مفتاح لقفل " فإن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدلعلى ما عنده من أول وهلة، وليتجنب (ألا) و(خليلي) و(قد) فلا يستكثر منها ابتدائه، فإنها من علامات الضعف والتكلان، إلا القدماء الذين جروا على عرق، وعملوا على شاكلة، وليجعله حلوا سهلا وفخما جزلا" [٢]. وأفرد الدكتور أحمد مطلوب في كتابه معجم النقد العربي القديم خاصية الابتداء بأهمية حرص الأديب على اختيار مطالعه بعناية وكيف " ينبغي أن يتأنق الأديب في ثلاث مواضع من كلامه حتى يكون أعذب لفظا، وأحسن سبكا، وأوضح معنى وهذه المواضع هي : الابتداء، والتخلص، والانتهاء " [٣] مفصلا القول عن الابتداء بتعريف يوضح فيه الكيفية التي من خلالها يفتتح الأديب نصه، " والابتداء أن يكون مطلع الكلام شعرا أو نثرا أنيقا بديعا، لأنه أول ما يقرع الأسماع فيقبل السامع على الكلام ويعيه، وان كان بخلاف ذلك، أعرض عنه ورفضه، وإن كان في غاية الحسن " [٤].

أولا – المفهوم :

كان العرب يبدون عناية فائقة، باختيار ما يبتدئون به كلامهم، كان شعرا منظوما أو كلاما منثورا، و"اتفق علماء البديع على براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلّة المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرّقة وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصا عند السماع وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ومطلعها مع تجنب الحشو ليس له تعلّق بما بعده " [٥] ويضع أرسطو طاليس في كتابه (الخطابة) توضيحا وقاعدة

---

[١] أبو عبد الله محمد بن بكر الرازي، روضة الفصاحة، تحقيق : خالد الجبر، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٥، ص ١٥٤ م..

[٢] ابن رشيق القيرواني، كتاب العمدة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج١ ص ٢١٨ دار الجيل سوريا سنة ١٩٨١م.

[٣] احمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، ج ١، ص ٦٢، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٩م.

[٤] أحمد مطلوب المصدر السابق نفسه.

[٥] تقي الدين ابي بكر الحموي الازراري، خزانة الأدب وغاية الأرب، دراسة وتحقيق د كوكب دياب، ص ٣، دار صادر بيروت ٢٠١١ م.

للاستهلال جامعا فيها بين القول شعريا كان أو نثريا مع الموسيقى، : " والاستهلال هو إذن بدء الكلام وبناظره في الشعر : المطلع، وفي فن العزف على الناي : الافتتاحية، فتلك كلها بدايات كأنها تفتتح السبيل لما يتلو. والافتتاحية شبيه الاستهلال في النوع البرهاني، وذلك أن عازف الناي، إذا عرفوا لحنا جميلا وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنها لحنها، وينبغي في الأقوال أن يجري التأليف هكذا : نبدأ بالتعبير عما نقصده إليه ثم نسترسل، وكل الخطباء يلتزمون هذه القاعدة " [١]. وعناية الشعراء والكتاب بهذا الموضع من النصوص سار بينهم مثل مسير الطبع والسلوك المتراكم عندهم الذي شكل أسلوبا لغويا طغى على كل القصائد والخطب والرسائل

ولابد من العناية بالابتداء ف " العناية بالابتداء قديما تحظى بمنزلة رفيعةٍ " فالعناية بالابتداء كانت واضحة وجلية في شعر ما قبل الإسلام حيث تمسك الشعراء بالمقدمات الطللية والتي كانت تشكل وجها مذهبيا واحدا لدى جميع الشعراء وهذا يعكس أن توحدا قائما في الأسلوب لدى الجميع ويعكس قيما مجتمعية، فتوحد اللغة، وإجماع القبائل على قيم حياتية وفكرية مشتركة يدلان على مبلغ الترابط الاجتماعي وبحث العربي عن كيان متماسك " [٢]، وهذا إنعكاساً في المعاني التي أرادها الشعراء في صنعتهم، فكان الابتداء عندهم " نوع من صناعة التأليف جمّة فوائده، وذلك يجعل مطلع الكلام من الشعر والخطب والرسائل دالاً على المعنى المقصود بذلك الشعر أو تلك الخطبة أو تلك الرسالة ومن أدب ذلك أن لا يذكر الشاعر في افتتاح القصيدة الممدوح بما يتطاير به "[٣].

والمتتبع لمسارات الأدب العربي وتأريخه يلحظ ذلك بوضوح، من خلال تتبعهم دقة الصنعة في البيان والبعد العميق للمعاني و" استخداماتها كانت مألوفة وشائعة وهي تشكل أساس كلام العرب، وجاء القرآن الكريم ليثبت تلك الأساليب على اختلافها، لكنها هي الأخرى لم تستعمل كهدف ولم تستغل كغاية للكلام، كان المضمون دائما هو صاحب السيادة والغلبة "[٤]، فالمعنى كان غاية القائل يبدأ به من حيث الاستهلال الأول للنص كونه الركيزة الأولى التي يتم الانطلاق منها، وهو يشكل أثرا هاما لدى المتلقي و" أن الشعر أو أي ضرب

---

[١] ارسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار وكالة المطبوعات الكويت و دار قلم لبنان ١٩٧٩م، ص ١٣٠.

[٢] د نعمة رحيم العزاوي، فصول في اللغة والنقد ، المكتبة العصرية ص٢٢٧ ط اولى بغداد ٢٠٠٤م.

[٣] عز الدين بن الاثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام، تحقيق الدكتور عبد المجيد هنداوي ، ص ٣٣٥ دار افاق العربية القاهرة ط الاولى ٢٠٠٧ م.

[٤] صدام حسين، مقامات الهمذاني المصدر السابق ص ٦٣.

من ضروب الأدب يؤثر أثرا كبيرا بأسلوبه وطريقة نظمه من غير أن يكون متضمنا معاني شيقة بل الحق أنه لابد في الجودة وقوة التأثير فيهما معا وأن الأسلوب أو نظم الكلام ليس إلا وسيلة من وسائل نقل المعنى " [١]، وهذا ما يساق على حسن الابتداء من حيث الأسلوب كونه يمثل " الخيوط الناظمة للقصيدة قالبًا ومضمونًا، ذلك مع الإقرار باستواء العناصر البنائية للقصيدة، في تحقيق الأثر المنشود الذي يتوخاه الشاعر"[٢].

ثانيا التطور:

وفي ضوء ما ذكرناه سابقاً فإن حسن الابتداء (الاستهلال) وقع تحت عناية النقاد والمبدعين على حد سواء، الأمر الذي لم يبق هذا الضرب على حاله قديما، بل تطور على أيدي أصحاب صنعة الأدب، ويوازيه في ذلك نظرة النقاد ودراستهم له ومراقبة تطوره على مدى الأزمان وفي " الدراسات الحديثة ارتبط مصطلح الاستهلال بالعتبات أو العتبة النصية، فليس ذلك من قبيل موقعه النصي، إذ لا يمكن أن يكون ذلك مطلقًا، خصوصًا بعد أن تواضع النقد العربي الحديث على إيوائها إلى حقل النص الموازي، الذي يوحي بوجود نص لا يتقاطع مع الاستهلال، العنوان والابتداء، بينما الاستهلال الشعري هو مكون أولي، الأصل مع النص الأصلي لجسد القصيدة ولا يمكن فصله والنظر إليه باعتباره موازياً للنص، وإنما جاءت تلك التسمية من قبيل المتلقي؛ لأن الاستهلال بالنسبة إليه لا لموقعه النصي، عتبة ثانية بعد العنوان لا يستطيع تجاوزها بالعبور إلى بقية النص دون الوقوف عندها. فنشطت هذه التسمية مع ازدهار الاهتمام بالمتلقي في الدراسات الحديثة "[٣].

ومن الملاحظ أن الشعر العربي بقي ملتزما بالمقدمة الطللية فيما قبل الإسلام ولم تشهد الشعرية العربية في تلك الفترة تطورا في مطلعها المتمسك بالبكاء على الديار والأماكن أو التقديم بالخمريات والغزل، حتى جاء الإسلام وفي هذا العصر " مما يرجحه الباحثون أن الشعر العربي قد أصيب بالجمود والركود بعد ظهور الإسلام وذلك لأن الدوافع التي كانت تهيج الشعراء في العصر الجاهلي وتبعثهم على قول الشعر كالعصبيات والمفاخرات والمنازعات بين القبائل وغيرها من سنن الجاهلية قد زالت وكمنت في نفوس الناس إلى

---

[١] أحمد أمين، النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية ج١ ط٣ ص ٥٧ سنة ١٩٦٣ م.

[٢] البندري معيض عبد الكريم، الاستهلال في شعر غازي القصيبي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى ص ١٤٣٤، ١٨ هـ

[٣] البندري معيض، الاستهلال في شعر القصيبي المصدر السابق ص ٢٦ و ص ٢٧

حين، لمعارضتها روح الإسلام الداعي إلى الخير والفضيلة " [١] الأمر الذي ألقى بظلاله على مضامين الشعر التي تهذبت كثيرا بسبب اتجاهات الأمة ذاك، ويرى بعض الباحثين الشعر " لم يضعفْ من الناحية الفنية بل خمدت ريحه ثورته وولعل هذا بسبب إحساس العربي بإعجاز القرآن وبلاغته وتفوقه بلا شك على القصيدة إضافةً إلى اهتمام المسلمين والالتفات إلى حفظه وتلاوته وانشغالهم بالفتوحات ونشر الدعوة الجديدة " [٢]، لكن هذا لم يدم طويلا حتى ظهور العصر الأموي حيث الاضطرابات التي انعكست على تجارب الشعراء " بل سرعان ما نهض الشعر في بيئات مختلفة من المملكة الإسلامية على نشوب الفتن الداخلية وظهور الأحزاب السياسية ورجوع العصبيات القبلية وشيوع الغناء والشراب والمجون أظهر مثلا في بيئة كالبصرة والكوفة والحجاز والشام جيلا جديدا من الشعراء عبّر فيه عن جوانب هذه الحياة الجديدة " [٣]، وهذه التغيرات بمجملها كانت قد انعكست على النص الشعري العربي بل شهدت القصيدة تطورا، يصحبه تمرد، تعمدُ كسر عناصر القصيدة والمطلع من ضمنها" بدءا من أبي نواس (ت ١٩٩هـ) مُطْلق الثورة على هذا الالتزام الشعري بأبيات استحالت مَعْلَمًا بارزاً في هذه السبيل مثل قوله:

يَبْكِي عَلَى طَلَلِ المَاضِينَ مَنْ أسَدٍ..... لاَ دَرّ دَارِكَ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أسَدِ؟ (البسيط)

وقوله:

تَصِفُ الطُلُولَ عَلَى السمَاعِ بهَا..... أفَذُو العِيانِ كَانتَ فِي العِلْمِ؟ (الكامل)

ورغم خطورة هذه الدعوة ومدى الضجّة التي يمكن أن تثيرها في حينها، لكنّها قطعًا لم تكن صيحة معزولة في فجّ عميق، فقد واكبت دعوات صارخة كلّها ثورة على القديم في عصر ارتجّت فيه الحياة العربية وهي تخوض مُنقلبًا نقلها من بداوة الحجاز إلى مدنية العراق" [٤].

وفي هذه الابيات ينتقد الشاعر من جايله في فترته في أنه مصرّ على التمسك بطريقة الماضين في تقديم القصائد بالبكاء على الطلل وأنهم أخذوها سنة من الأولين حتى أنهم قاموا بنسخ المشاعر البكائية موضحا ذلك بتساؤله الأخير

---

[١] سامي منير، ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١ سنة ١٩٧٩ ص ١٦٠م.

[٢] محمود محمد أسد، تطور مطلع القصيدة من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، مقال منشور، عود البند / المجلة الثقافية الشهرية/ العدد ٦٨ السنة السادسة ٢٠١٥م.

[٣] سامي منير، ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي، المصدر السابق ص ١٩٠ .

[٤] بو عامر بو علام، شعرية المطالع عند المتنبي، رسالة ماجستير، كلية الاداب والعلوم والانسانية، جامعة ورقلة، الجزائر ٢٠٠٤م.

في شطر الثاني من البيت (**أَقْذُو العِيَانِ كَانتَ فِي العلمِ؟**) ليكون هو من أوائل المُحْدِثِين والثائرين على هذا الأسلوب.

هذا التطور فتح الباب على تحولات أخرى دخلت المنظومة المجتمعية والثقافية التي صاحبت تطور القصيدة لكن بعض الشعراء تمسكوا بما جاء قديما " فالوقوف على الأطلال استمرَّ لدى كثير من الشعراء ونخصُّ منهم والأخطل(ت ٨٩ هـ) وجريراً(ت ١١٠ هـ) والفرزدق(ت ١١٤هـ) وذا الرُّمَة(ت ١١٧هـ) لكن ظهرت المقطوعات الشعرية ذات الموضوع الواحد كغزليات عمر بن أبي ربيعة وخمريات الوليد بن يزيد الذي عرضها بأسلوب قصصي يعتمد على وحدة الموضوع"[١].

وبعد انهيار الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية بدأت الشعرية العربية بداية جديدة وبدأت تنحو نحو التجديد وصياغة المعاني المبتكرة من خلال التثاقف مع الآخر المختلف عبر الترجمات وقراءة الثقافات الأخرى، وقد كان هذا العصر "هو الأخصب فكريًا وثقافيًا، وهو الأغنى بالإنجازات العقلية، وهو الأثرى في كمية النتاج النخبوي ونوعيته، وفيه اجتمع عشرات المئات من الأدباء والمفكرين والفلاسفة، ولم يحصل أن اجتمع في عصر من هؤلاء كما اجتمع في زمن وهب لهم الحرية الكفيلة بأن يختار كل أديب نمط تفكيره وأسلوب حياته وطريقة التعبير عن نفسه " [٢] وانفتاح العقل العربي على علوم جديدة الذي انعكس على اللغة التي شهدت تطورا في المعنى، و"بدأ الشعراء يخرجون عن نهج القصيدة الذي ألفناه في الجاهلية فالشاعر الذي عاش في العصر العباسي واحتكَّ مع الأحداث والمستجدَّات عن قرب لا بد أن يعبِّر عن همومه أو يوظف تجربته وحكمته وهذا ما نجده في مطلع القصائد فقد خرج الشعراء بمحض إرادتهم دون دعوة موجهة، فأبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) تكثر الحكمة عنده والتي استهل بها قصائده :

لكل امرئٍ مِنْ دَهرِهِ ما تَعَوَّدَا ..... وعادَةُ سيفِ الدّوْلَةِ الطعنُ فِي العدا(الطويل)

وقوله أيضاً في قصيدة ثانية:

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا ..... وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمانِيَا(الرمل)

ومن جانب آخر نرى الشاعر مطيع بن إياس يشارك الطبيعة، ويخاطبها شاكيا الزمان من قلب مفعم بالحزن.

---

[١] محمود محمد أسد، تطور مطلع القصيدة من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، المصدر السابق .

[٢] صدام حسين محمود عمر، مقامات بديع الزمان الهمذاني المصدر السابق ص ٣٥.

أَسْعِد إنـي يـا نَخلَتـي حُلْـوان..... وَابكِيـا لـي مِـن رَيـبِ هذا الزمـان(الخفيف)
وَاعلَمـا أنَّ رَيبَـهُ لـم يَـزَل..... يُفْـرقُ بـين الآلافِ والجيـران

وهذه المطالعُ تُوصلنا إلى أنَّ مطلع القصيدة ومضمونها تطوَّرا بشكل طبيعي فما الحكمة إلا بوح نفسي لما يختلج في نفس الشاعر حالها كحال الوقوف على الأطلال، ولكن من المنطق التعايش مع الواقع والتأثرُ به " [١].

فأبدع بهذا العصر الشاعر أبو تمام بحسن مطالع القصائد وكان شعره يترك الأثر البالغ لدى متلقيه.

ومن نماذج شعره ذات المطالع الحسنة والمتطورة التي أخرجها عَلّيه الأستاذ علي مدرس الآداب في جامعة محمد بسكرة في بحث تناول التجديد في شعر ابا تمام المطالع انموذجا :

رَقتْ حواشي الدهرُ فهيَ تمرمرُ..... وغَدَا الثَّري فـي حَلْيـهِ يَتكسَّرُ(الكامل)

وقوله في مدح داوود بن محمد:

غنـى فشـاقكَ طـائرٌ غريـدُ..... لمـا تـرنمَ والغصـونُ تميـدُ(الكامل)

وقوله يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة:

دَيْمـةٌ سـمحةُ القيـادِ سـكوبُ..... مسـتغيثٌ بهـا الثـرى المكـروبُ(الخفيف)

وإذن ما في هذه الابتداءات الجدةُ في موضوعها، ولعل هذه الابتداءات تنتمي لمقدمات كاملة خُصصت لهذا الغرض، وهو بذلك يضيف لونا جديداً من المقدمات يثري به مقدمات الشعر العربي، المعروفة كالمقدمة الطللية والغزلية الى.... وفي هذه المقدمة الجديدة يربط الشاعر بإحكام غناها بفائدة وبراعة، بين خصال ممدوحه، ويقابل بينهما، وهو يطوع ما في الطبيعة من قسوة وجبروت، ويمكن لكل ما ينم فيها عن السعادة والبشر والجمال ويجعله يدحض كل ما ينم فيها عن الهم والمتاعب" [٢]، فيبان من ذلك، كان النثر العربي يسير بالتوازي مع الشعر من خطب ورسائل حيث شهد تطورا في مطالعه بتعاقب الحقب الزمنية التي مرّت على الأمة.

وأتت الدراسات الحديثة تضع للمطلع أو المدخل تسمية جديدة وهي (النص الموازي) أو (النصوص الموازية) وحسب جيرار جنيت انها " تشتمل

---

[١] محمود محمد اسد، المصدر السابق.

[٢] علي عالية، التجديد في شعر أبي تمام - مطالع القصائد أنموذجا، مجلة العلوم الإنسانية- جامعة محمد خيضر بسكرة العدد السابع سنة ٢٠٠٥ م.

علـى العنـوان الـرئيس، والعنـوان الفرعـي، والعنـاوين الداخليـة والمقـدمات، والملحقات، والهوامش، والإهداء، والملاحظات، وكلمات الغلاف، والفهرس، والمقتبسات، والتنبيهات، والتقديم، والتوثيق، والصور، من أكثر الموضوعات التي اجتذبت إهتمام المفكرين والدارسين في هذا الميدان في الفترة الأخيرة وإن كل أديب يتعامل مع العتبات النصية التي تعد مؤشراته الأولى نحو دلالات النص، والتي يتيح لقارئه من خلالها فرصة الدخول إلى عالم الكتاب، قبل أن يتغلغل في دهاليز النص، بأشكال متنوعة تتبع رؤيته واسلوبه الخاص" [١] وأن النص قائم على علاقة جزئية موحدة مترابطة فيما بينها من حيث اللغة والدلالة من العنوان والمطلع الأول حتى آخر جزء فيه، ويندرج حسن الابتداء ضمن المعاني التي تحقق الاستمالة من قبل القائل لمتلقيه حيث عُدَّ بأنه " استهواء برفق أو إغواء المتلقين متعلقا بسرعة الإستمالة وهو من أكثر العناصر استقرار ضمن النسق البلاغي دقيق " [٢].

أهمية حسن الابتداء :

تكمن أهمية الابتداء بكونها ركيزة يقوم عليها قياس براعة وإبداع الكاتب والشاعر و" قد وصل اهتمام النّقاد البلاغيين القدماء بالمطلع إلى اعتبارهِ مقياسا بديعيّا يسهم في جماليّة القصيدة، وذلك من إحلالهم إيّاه المحلّ الأوّل في كلّ الكتب البديعيّة التي عالجوا فيها أنواع البديع كابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) المؤسّس الأوّل والمنظّر المصطلحي الأسبق لهذا الفنّ في كتابه البديع، وأبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين، وصفي الدّين الحلي (ت ٧٥٠ هـ) في شرح البديعية وغيرهم ممّن لم يكتفوا بالإشارة المجرّدة إلى قيمة المطلع الشّعريّة، بل وضعوا شروطا ومعايير تحقّق له ميزته الفنّيّة وجعلوه على رأس الفنون البديعيّة بما أطلقوا عليه(براعة المطلع) في النّظم والنّثر على سبيل الإعارة وإلحاق النّثر بالشّعر"[٣].

حجم الابتداء وحدّه :

وأفرد النقاد للابتداء والاستهلال مساحة له ضمن حدود النص و" يعد أرسطو أول من تنبه إلى قضية حجم الاستهلال بقوله: أن حجم الجملة الاستهلالية تكون بجملة أو جملتين، وفي الأغلب تكون من جملة واحدة وفي

---

[١] ايمان عبد الحسين، الإشتغال على العتبات النصية، ماء مبلل بي لرعد البصري إنموذجاً تطبيقياً، مقال منشور، جريدة الزمان الدولية العراقية، السنة السابعة العدد ٤٨٥٧ 11يونيو ٢٠١٤ ص ١١ الف ياء.

[٢] هاجر مدقن، حجاج التمثيل في الآداب السلطانية مقاربة تداولية لكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، دار النابغة للنشر والتوزيع ط١ مصر ٢٠١٤ ص ١٨٤

[٣] بو عامر بو علام، شعرية المطلع عند المتنبي، المصدر السابق، الموضع نفسه .

الرواية تكون فقرة أو فقرتين، فحجم الاستهلال في القصيدة الغنائية تكون كلمة واحدة أو البيت الأول، وفي القصيدة الحديثة تكون البيت الأول أو البيتان على أن يسبق كل مقطع من مقاطعها استهلال صغير يستمد المادة الأساسية من الاستهلال الأساس وكذلك الحال بالنسبة للشعر الجاهلي " [١] ورغم خلو القصائد القديمة من العنوان الواضح والصريح الذي جعل من المهتمين في هذا الفن أن يحرصوا على متابعة مطالع القصائد وأبياتها الأولى وصار الابتداء " يستقطب جلّ اهتمام المبدع والنّاقد معا وهو ما أحلّه محلّ العنونة في الدّارسات السيمولوجية، فمعلوم أنّ السيمولوجيا احتفت بالعنوان الذي رأت فيه مصطلحا إجرائيا حاسما في مقاربة النصّ الأدبي ومفتاحا لا بدّ منه للولوج إلى مغاليق بنيته المعقّدة، كما أنّه يتيح تفكيك جسد النّصّ للوصول إلى سبر أبعاده الدلاليّة والرّمزيّة" [٢]، لكن هذا قائم على الاختيار الحسن للألفاظ التي تضيف العذوبة والجمالية للنص، فاختيار الألفاظ الحسنة، الواضحة، المفهومة والمُفسِرة للمعنى المقصود يعد الأمر الأهم بالنسبة لمُبتَدأ النص ومطلعه واستهلاله كونه يعد البارقة الأولى التي سينطلق منها المُرسل إلى حيث ذائقة ومنظومة تلقي المرسل إليه، فالعناية به واختيار الأفضل مطلوبة ، حتى يصل الأديب إلى مبتغاه فـ " الابتداء أول ما يقرع السمع فإن كان عذب اللفظ، صحيح المعنى، جيد السبك، ملائما للموضوع ومناسبا للمقام، أقبل السامع على الكلام بانشراح فوعاه وعلم ما فيه وإن كان على خلاف ذلك عرض عنه " [٣].

شروط الابتداء :

ونبه العلماء إلى كذلك في شروحهم ونقدهم للشعر وفي نظرهم " يجب أن يكون محكم الصياغة، متين البنية، خالياً من الوهن، مشرق الديباجة، شريف الألفاظ خال من المعاظلة يسبق معناه لفظه" [٤]، وهنا تكمن قدرة الأديب والشاعر على سحب الآخر من خلال الإجادة بمطلعه ومبتدأه فهو يمثل الركيزة الأولى للنص وعموما فإن القصيدة " تعتمد على مطلعها اعتماداً رئيسياً لتتحقق عدة أمور منها: كَشْفُ غرض القصيدة واتجاهها المضموني، ومنها جلب الانتباه إلى القصيدة واستدعاء الإصغاء إليها، ومنها تبين قدرة الشاعر، وموهبته،

---

[١] شذى عبدالحكيم الرواشدة، بنية الاستهلال في الشعر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة مؤته، ص ١٢ سنة ٢٠٠٦م.

[٢] بوعامر بوعلام، المصدر السابق.

[٣] الشحات محمد ابو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع، خفاجة للطبع والنشر القاهرة ص ١١٤ ط أولى سنة ١٩٩٤م.

[٤] علي عالية، التجديد في شعر أبي تمام - مطالع القصائد أنموذجا، المصدر السابق.

ومدى تمكنه من صنعة الشعر" [١] وقدرته على صياغة الألفاظ السلسة، وهذا جانب مهم يعكس الإحاطة التامة بمقدرة الأديب اللفظية فالجانب" اللفظي يظهر السهولة والرّقة والسّلاسة،، إلى جانب سلامة السبك وهو النّاحيّة التركيبيّة من الألفاظ، ويعني خلو الصّياغة اللّغويّة من التنافر والتداخل بين عناصرها. وأمّا الجانب المعنوي فيتمثّل في وضوح المعنى بالبعد عن الغموض والالتواء،وتجنّب الحشو الناشز عن المعاني المتوخّاة، وتناسب قسميْ المطلع بأن يكون العجز منتميا إلى حقل دلالي ملائم للصدر، وإلا جاء أجنبيا مبتورا عنه" [٢] وهذا الاهتمام جعل من حسن الابتداء والعناية به يجري مجرى السلوك لدى الشعراء وخاصة شعراء ما قبل الإسلام " وموضوع الأطلال كان يلح على عقل الشاعر الجاهلي إلحاحا قويا، لهذا نجده يتكرر في مطلع كل قصيدة مما يجعله عاكسا لتجربة ذاتية أو نابعا من تقليد الشعراء بعضهم البعض " [٣] وهذا السلوك أو الطريقة تفسر بأن " الشاعر في ذلك العصر كان يخضع لفلسفة تعارف عليها المجتمع لأنها تخدم مشاعر وأفكار تتجاوز الفرد " [٤].

ومن جميل حسن الابتداء " قال النقاد لم يبتدئ أحد من الشعراء بأحسن مما ابتدأ به أوس بن حجر، لأنه أفتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها في القصيدة، فأشعرك بمراده في أول بيت حيث قال :

أيتها النفس أجملي جزعا..... إن الذي تحذرين قد وقعا[٥](خفيف)

ومن جميل قول العرب في الابتداء ما أكد عليه " العلامة زكي الدين بن الأصبع – رحمه الله – في إيراد ابن المعتز في هذا الباب قول النابغة الذبياني :

كِلينِي لِهَمٍّ يا أميْمة نَاصِبِ ..... وليْلٍ أُقاسِيهِ بَطيءِ الكَوَاكِبِ (طويل)

لقد أحسن ابن المعتز الاختيار فإني أظنه ناظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء أمرئ القيس حيث **قال :**

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيب ومَنْزِلِ ..... بسِقْطِ اللوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ (طويل)

---

[١] ناهدة فوزي، دراسة هيكلية في شعر الحبوبي ، مجلة دراسات في الأدب المعاصر، السنة الثالثة العدد ٩ ص ١ء.

[٢] بو عامر بو علام، شعرية المطلع في القصيدة العباسية، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر بتانه، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ص ١٠٧ سنة ٢٠١٣م.

[٣] نعم رحيم العزاوي، المصدر السابق نفسه ص ٢٢٨ .

[٤] نعم رحيم العزاوي، المصدر السابق نفسه.

[٥] الشحات محمد أبو شتيت المصدر السابق ص ١١٦ .

فرأى ابتداء امرئ القيس على تقدمه وكثرة معانيه متفاوت القسمين جدا، لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني، وليس في الشطر الثاني شيء من ذلك " [١]

وإن جاز لنا القول : بأن النص الأدبي هو سماء وشمسه تسطعُ عند المطلع وتضيء معانيه مع أول شروق لها، ليصل الضوء إلى المتلقي كاشفا المعنى الذي ذهب إليه منشئ النص إن كان شعرا أو نثرا.

[١] السيد حمدان سعد، البديعية الكبرى، المصدر السابق ص ٩ .

المبحث الثاني

- **حسن الختام**
- **أولا المفهوم**
- **ثانيا التطور**
- **تعدد تسمية الختام**
- **شروط الختام**

المبحث الثاني

حسن الختام المفهوم والتطور

ومثلما أشار البحث إلى أن النص مقسم إلى أجزاء ووحدات تشكل كيانه تبدأ من حيث المطلع والاستهلال إلى الأجزاء الأخرى، نصل هنا إلى جزء آخر من أجزائه ألا وهو الخاتمة، خاتمة النص الإبداعي الشعري والنثري التي تمثل نهايته التي ختم بها القائل قوله، باحثين فيما قاله الأقدمون وما تمثل هذه الجزئية من أهمية بالغة في النص كونها البقية الباقية لدى السامع، و" النقد العربي القديم عُني بتخلص الشعراء من المقدمة إلى غرض القصيدة الأساس وهي عناية توحي ببداية وعي النقاد بضرورة الارتباط بين أجزاء القصيدة، غير انه كان وعيا من أجل نقد البيت "[١]، و"ولاهتمام الدارسين بالمطلع، وإدراكهم لأهميته، لم يمنعهم من الاهتمام بالخاتمة بل إن إهتمامهم بالمطلع، جعلهم يهتمون بخاتمة القصيدة لكن اهتمامهم بخاتمة القصيدة أقل من مطلعها، بالرغم من أن الذين تعرضوا لها لا يقل اهتمامهم بها عن المطلع، وأطلقوا على الخاتمة اصطلاح (المقطع) وبحثوا بها من الزاوية نفسها التي تعرضوا من خلالها للمطلع، من حيث الاهتمام بالسامع والمخاطب، وذلك لأن الخاتمة هي قاعدة القصيدة، ولذلك يجب أن تكون محكمة " [٢] وسندرس في هذا الموضع أولا معناها اللغوي ومن ثم الاصطلاحي لنصل إلى ما قاله أهل النقد فيها .

المعنى اللغوي :

والخاتمة في اللغة كما أوردها ابن منظور في معجم لسان العرب :

" خَتَمَه يَخْتِمُه خَتْماً وخِتاماً، الأخيرة عن اللحياني طَبَعَه فهو مَختوم ومُخَتَّمٌ شُدِّد للمبالغة، والخاتِمُ الفاعِلُ والخَتْم على القَلْب أن لا يَفهَم شيئاً ولا يَخرُج منه شيء كأنه طبع، وفي التنزيل العزيز خَتَم اللهُ على قلوبهم هو كقوله طَبَعَ الله على قلوبهم فلا تَعْقِلُ ولا تَعِي شيئاً قال أبو إسحق معنى خَتَمَ وطَبَعَ في اللغة واحدٌ وهو التغطية على الشيء والاستِيثاقُ من أن لا يَدخله شيء كما قال جلّ وعلا أم على قلوب أقفالُها وفيه كلا بلْ رَانَ على قلوبهم معناه غَلَبَ وغَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقوله عز وجلّ فإن يشإ الله يَخْتِمْ على قلبك قال قتادة المعنى إن يشإ الله يُنْسِكَ ما آتاكَ وقال الزجاج معناه إن يشإ الله يَرْبِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم أفْتَرَى على الله كَذِباً والخاتَمُ ما يُوضَع على الطِّينة وهو

---

[١] عبد الرحمن بن صالح الخميس، جماليات خاتمة القصيدة، دراسة اسلوبية في خواتم القرن الرابع الهجري في العراق والشام، دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ص ١٠ سنة ١٤٣٦ هـ .

[٢] شذى عبدالحكيم الرواشدة، بنية الاستهلال في الشعر الاموي، رسالة ماجستير، المصدر السابق ص ١٤.

اسم مثل العالِم والخِتامُ الطِّينُ الذي يُخْتَم به على الكتاب وقول الأعشى : وصَهْباء طاف يَهُودِيُّها وأَبْرَزَها، وعليها خَتَمْ أي عليها طينة مختومة "[١].

المعنى الاصطلاحي :

والختام أو الخاتمة، أو حسن الختام هي نهاية القول الذي قيل، واهتم بها النقاد كثيرا ووضعوا لها تعريفات عديدة مفصلين القول عنها و" ذكر ابن المقفع أنه من مستخرجاته، وهو موجود في كتب غيره، بغير هذا الاسم (حسن الختام)، التيفاشي سماه : حسن المقطع وسماه الشهاب محمود : براعة المقطع وسماه ابن أبي الاصبع : حسن الخاتمة، وقال الشهاب محمود هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل، والخطيب أو الشاعر مستعذبا لتبقى لذته في الأسماع " [٢]، ويجب ان تحمل العبارات الدالة على نهاية القول " أو هي ما يجب أن يدل على نهاية متضمنة مستوى الأشياء بوضع استرجاعي تلخيصي أو حاملة للخلاصة المثيرة للعاطفة "[٣].

أولا المفهوم :

تشكل الخاتمة الموضع الأخير من النص وهي القاعدة التي ينصب عليها معنى القول الإبداعي، وأيضا هي الاطار الشكلي والصوتي لخاتمة البيت الشعري فالقافية خاتمة إن كانت في بيت واحد أو في مقطوعة شعرية أو قصيدة كاملة ويورد أبو الحسن بن رشيق القيرواني في كتابه العمدة ما قيل للشعراء " وقيل لبعض الحذّاق بصناعة الشعر : لقد طار أسمك واشتهر، فقال : لأني أقللت الحز، وطبقت المفصِلَ، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء، وقد صدق لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق في النفس، لقرب العهد بها، فإن حُسنت حسِن، وقبُحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال الرسول (ص) "[٤].

وفي القرآن الكريم تأتي أواخر السور بخواتيمها بسبك إعجازي، حيث تشير " الدراسات القرآنية إلى حسن المقطع باصطلاح عرف بالفاصلة والتي لها دور كبير فهي : آخر كلمة في الآية، قال القاضي : الباقلاني الفواصل

---

[١] ابن منظور، معجم لسان العرب، باب الخاء المصدر السابق ص ٣٣٠.
[٢] عائشة الباعونية، البديعية الكبرى، تحقيق د السيد حمدان سعد، المصدر السابق ص ٦٦٥ .
[٣] هاجر مدقن، المصدر السابق الموضع نفسه ص ١٨٤.
[٤] ابو الحسن بن رشيق القيرواني، كتاب العمدة، ص ٢١٧ المصدر السابق.

حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلم بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر آية فصل بينها وبين ما بعدها، من قوله تعالى (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)" [١]، وذكر علماء اللغة والنقد هذا الفن تحت مسمى المقاطع " والمقاطع : هي منقطع الأبيات وهي القوافي والمطالع أوائل الأبيات وقال قدامة بن جعفر في بعض تآليفه مشيرا إلى أن المقاطع أواخر أجزاء البيت "[٢] وفي الدراسات البديعية يأتي هذا الضرب مُعرفا بأنه " أن يختم المتكلم كلامه ختاما حسنا في ألفاظه ومعانيه، ملائما لما قبله ومناسبا للموضوع الذي يقول فيه، لأن ختام الكلام آخر ما يعيه السمع، ويرتسم في النفس فإن كان مختارا مستوفيا شروط الحسن جبر ما سبقه من تقصير ورسخ في الذهن وان كان بخلاف ذلك ترك انطباعا سيئا وربما أنسى محاسن ما قبله " [٣].

ومن الانتهاءات الحسنة التي أوردها النقاد ومنهم الدكتور الشحات محمد أبو شتيت في كتابه دراسات منهجية في علم البديع فيما يخص هذا الباب قول أبو النؤاس :

"وأني جديرٌ إذا بلّغْتكَ بالمنى..... وأنتَ بما أملتَ جديرُ(طويل)
فأن تولى منك الجميل فأهله وإلا فأني عاذرٌ وشكورُ

وقول أبو تمام :

فما من ندى إلا إليكَ محلهُ..... ولا رقعةٌ إلا إليك تسيرُ"[٤](الطويل)

ونلحظ في البيتين السابقين قوة السبك وان الشعراء دأبوا على تقعيد القصيدة على هدف معنوي جل سلسل موصل إلى الغرض الرئيس مانحين الممدوح العذر وصفات الكرم فضلا عن وصفه بالرقة وأنه قبلة تسير نحوها الناس، لتبقى صور البيتين عالقة لدى السامعين والممدوح على حد سواء.

ثانيا التطور :

ولم تبق هذه الجزئية من البناء النصي على شكلها دون تطور، فقد شهدت تطورا ملحوظا على مختلف الأزمنة التي مرت بها الشعرية العربية،

---

[١] محمد حسن عطا المنان، بحث منشور، مجلة جامعة كسلا للعلوم الانسانية ، السودان، العدد الأول أبريل ٢٠١٢م ص ١٠١ .
[٢] ابن رشيق، العمدة المصدر السابق ص ٢١٥ .
[٣] الشحات محمد ابو شتيت، المصدر السابق ص ١٢٤ .
[٤] الشحات محمد أبو شتيت المصدر السابق الموضع نفسه.

وكانت ملامح هذا التطور واضحة عند العصرين الأموي والعباسي " فإن الحياة العربية تطورت في القرن الأول والثاني للهجرة، تطورا يوشك أن يكون كاملا، بل إن الحياة العربية تبدلت في هذين القرنين تبدلا تاما، فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الأدب فتجددت هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها " [١] وظهرت أغراض شعرية جديدة وتطور الأسلوب الشعري على مستوى المضمون من خلال المقدمات والخواتيم حتى أصبحت الخاتمة تمثل ركيزة معنوية مهمة قامت عليها وحدة النص لدى الشاعر و" يؤلف بدوره الارتباط الموضوعي والذهني بين أغراض القصيدة الواحدة وبالتالي يحقق وحدة القصيدة " [٢]، وأن " سيرورة النص وتقدمه في عرض المعلومات يخضعان إلى ظاهرتين هامتين هما (التكرار) و(التدرج) وذلك أن الكاتب يُذكر أحينا في مرحلة ما من مراحل النص، بأشياء سبق ذكرها محاولا بذلك ربط السابق باللاحق، وممهدا للانتقال إلى معلومات جديدة " [٣] وصولا إلى الخاتمة التي تحقق غاية النص ضمن تدرجه المعنوي والدلالي الذي صار محط اهتمام بسبب وجود الأثر النفسي في هذا الموضع من النص " فالتأثير في نفس السامع غدا مطلباً نقديا يحتم على الشاعر الاعتناء بنسج الشعر وتحسين صياغته كالعناية بالمطالع والانتقال والنهايات، والابتعاد ما أمكن عن إيراد القبح الذي يحول دون إيجاد التأثير والتفاعل" [٤] و" جاء ابن قتيبة الذي فتح الباب على مصراعيه للنقاد الذي جاءوا من بعده للحديث عن أجزاء القصيدة من مقدمة وحسن تخلص ومقصد ونلمح بهذا في قوله : قال أبو محمد: وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكي وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجود، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لان التشبيب قريب من النفوس، لائطا بالقلوب، فإذا علم انه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحرّ الهجير وانضاء، الراحلة والبعير، فإذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التاميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح،...فالشاعر المجيد من سلك

---

[١] طه حسين، حديث الأربعاء، ج ٢ ص ٩، الطبعة ١٤ دار المعارف ١٩٩٣م.

[٢] عبد الرحمن بن صالح الخميس ، جماليات خاتمة القصيدة المصدر السابق ص ١٢ .

[٣] محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، المصدر السابق ص ٨٣ .

[٤] شيماء جاسم خضير، خواتيم القصائد في شعر ابي النواس، المصدر السابق ص ٢٨٤.

هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد " [١].

تعدد تسمية الخاتمة:

ولم تبقى الخاتمة بدون تسميات متعددة وقد " أخذت مسألة الخاتمة حيزيا مهما من خلال جعلها إحدى فنون محاسن الكلام، فهذا ابن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤ هـ) يدرجها ضمن محاسن الكلام التي أوردها في كتابه منها: التخييـر، والتـدبيج، والتمـزيج والاستقصـاء... والهجـاء فـي معـرض المـدح،... والافتنـان، والمراجعـة والسـلب والإيجـاب، والإيهـام،... وحسـن الخاتمـة وقـد تعددت مصطلحاتها، وأهمها : المقطع، والانتهاء، والختام، أو حسن الخاتمة، والاختتـام، وأخرجهـا ابـن الأثيـر فـي (كتابـه المثـل السـائر فـي أدب الكاتـب والشـاعر) كشرط مهم للأديب وهو " أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقاب المعاني أخذةً ببعضها البعض، ولا تكون مقتضبة، ولذلك باب مفرد أيضا يسمى (التخلص والاقتضاب) وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر" [٢]، ويوردها الدكتور أحمد مطلوب في موسوعة المصطلح النقـدي تحـت عنـوان الـتخلص بتعريـف القزوينـي : " والـتخلص هـو : براعـة الـتخلص وحسـن الـتخلص وممـن سـماه (الـتخلص) القزوينـي وشـراح تلخيصه "[٣] وأما الاقتضاب فهو " أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاما آخر غيره، من غير علاقة تكون بينه وبين ما قبله، فمن ذلك ما هو أحسن من التخلص، وهو فصل الخطاب، فنقول : الفصل الفاصل بالخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ"[٤].لتكون الخاتمة هي القيمة النهائية لقول القائل والقالب الخاتم لبنية النص الشكلية والمعنوية، وهي بداية أخرى للنص كونها ستنهي عند القول وتبدأ لدى المتلقي بمعانيها ليبدأ هو بفتح مغاليقها وتحليلها وإسقاط فكره على الجمل التي وردت على لسان القائل.

---

[١] شيماء جاسم خضير، خواتيم القصائد في شعر ابي فراس الحمداني، بحث منشور، مجلة الاستاذ، العدد ٢١٠ المجلد الاول لسنة ٢٠١٤م، الجامعة المستنصرية، العراق.

[٢] ضياء الدين بن الاثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٩٧ ج ١ طبع بمطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة ١٩٣٩

[٣] احمد مطلوب المصدر السابق ص ١٤٣

[٤] عز الدين بن كثير، الجامع الكبير، ص ٣٣٣ المصدر السابق

شروط الخاتمة

وللخاتمةِ شروطها التي لابدَّ من الشاعر أن يعيرها الاهتمام في أثناء نظمه للقصيدة، فهذا أبو الهلال العسكري (ت٣٩٥ هـ) يرى أنه : أن يكون آخر بيت في قصيدتك أجود بيت فيها، وادخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها وفي موضع آخر يشير إلى أن تتضمن الخاتمة حكمة أو مثلاً سائراً، أو تشبيها مليحا " [١] فهو موضع الانتهاء من نهاية القصيدة وهو " قاعدتها وآخر ما يتبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا وجب أن يكون الآخِر قفلا" [٢] مخلصا لغرض القصيدة ولابد لهذا التخلص بأن يكون ذا معنى حسن لطيف " فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر، وجعل الأول سببا إليه، فيكون بعضه أخذ برقاب بعض، من غير أن يقطع المؤلف كلامه، ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه، كأنما أفرغ إفراغا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه، وطول باعه، واتساع قدرته" [٣].

ليأتي "حازم القرطاجني واضعا شروطا التي يجب الالتزام بها من لدن الشاعر وهو مشرف على الانتهاء من العملية الشعرية، فهو يفضل أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة، وان يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالته إليه أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه وكذلك يحتفظ في أول بيت الواقع مقطعا للقصيدة وواضح من كلامه هذا انه يؤكد على ضرورة الاعتناء بالخاتمة لفظا ومعنى وفي موضع آخر يضع شرطين احدهما يخص خواتيم الأغراض الشعرية، فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعان مؤسية فيما قصد به التعازي والرثاء، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه" [٤].

---

[١] شيماء جاسم خضير، خواتيم القصائد في شعر ابي فراس الحمداني، المصدر السابق

[٢] ابن الرشيق، العمدة، ج ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق

[٣] عز الدين بن كثير، الجامع الكبير، ص ٣٢٨ المصدر السابق

[٤] شيماء جاسم خضير، خواتيم شعر ابي فراس المصدر السابق ص ٢٥٨

الخلاصة

إن البحث عمل بخطته القرائية على دراسة آراء العلماء والنقاد بالابتداء (الاستهلال) والخاتمة مطلعا على التعريفات التي وضعت لهذين الضربين من فنون علم البديع وصولا إلى آراء المحدثين في مختلف العصور التي مرت على الشعرية العربية وكان البحث قد توصل إلى أن الابتداء والخاتمة يشكلان وحدة عضوية نصية جامعة لحدود النص الدلالية تبدأ من حيث العتبة الأولى إن كانت عنوانا أو بيتا شعريا إلى نهاية الفعل القرائي للنص، وهذه الوحدة الترابطية لها شروطها التي تحدد براعة الكاتب والشاعر في اختيار ألفاظه، وأيضا فأن الابتداء القديم والذي يمثل مطالع القصائد في الشعر العربي القديم كان يمثل سلوكا ومساراً خلقيا مجتمعيا وإطار فرضته الأعراف والتقاليد العربية على شكل القول وإسلوبه.

لم يأخذ البحث إنموذجا تطبيقا بل أخذ منهجا قرائيا مراقبا التحولات التي رافقت دراسة أجزاء القصيدة العربية وكذلك النصوص النثرية مثل الخطابة وغيرها ليصل إلى وجود علاقات تساهم بتقوية البنية الكلية للنص ولا ينظر إلى الجملة الواحدة بأنها معزولة عن السياق العام للنص، بل إنها تمثل جزاءً مكملا إلى بقية الأجزاء التي تشترك في فهم النص وهي مساهمة لفهم المدلولات المعنوية التي ذهب عليها النص، وانه وحدة كلية قائمة على نظام تتابع الجمل، ولا يمكن فصل هذه الجزئيات بعضها عن بعض.

قائمة المصادر

١. أحمد أمين، النقد الأدبي مكتبة النهضة المصرية ج١ ط٣ ص ٥٧ سنة ١٩٦٣
٢. أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، ج ١، ص ٦٢، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٩
٣. أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار وكالة المطبوعات الكويت ودار قلم لبنان ١٩٧٩ ص ١٣٠
٤. البندري معيض،، الاستهلال في شعر غازي القصيبي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى ص ١٨،١٤٣٤ هـ
٥. الحسن ابن رشيق القيرواني،، كتاب العمدة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج١ ص ٢١٨ دار الجيل سوريا سنة ١٩٨١
٦. السيد حمدان سعد : (٢٠١٥)، البديعية الكبرى وشرحها لعائشة الباعونية، دار النابغة للنشر والتوزيع ط١، مصر
٧. الشحات محمد ابو ستيت، دراسة منهجية في علم البديع، خفاجة للطبع والنشر القاهرة ص ١١٤ ط أولى سنة ١٩٩٤
٨. بوعامر بو علام، شعرية المطالع عند المتنبي، رسالة ماجستير، كلية الاداب والعلوم والانسانية، جامعة ورقلة، الجزائر ٢٠٠٤
٩. بوعامر بو علام،، شعرية المطلع في القصيدة العباسية، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر بتانه، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ص ١٠٧ سنة ٢٠١٣
١٠. تقي الدين الأرزي، خزانة الادب وغاية الأرب، دراسة وتحقيق د كوكب دياب، ص ٣، دار صادر بيروت ٢٠١١
١١. سامي منير، وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١ سنة ١٩٧٩ ص ١٦٠
١٢. شذى عبد الحكيم، بنية الاستهلال في الشعر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة مؤته، ص ١٢ سنة ٢٠٠٦
١٣. صدام حسين محمود، مقامات بديع الزمان الهمذاني بين الصنعة والتصنيع، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العاليا جامعة النجاح الوطنية
١٤. ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٩٧ ج ١ طبع بمطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة ١٩٣٩
١٥. طه حسين، حديث الأربعاء، ج ٢ ص ٩، الطبعة ١٤ دار المعارف المصرية ١٩٩٣

١٦. عز الدين ابي الحسن ابن الاثير،، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام، تحقيق الدكتور عبد المجيد هنداوي ، ص ٣٣٥ دار افاق العربية القاهرة ط الاولى ٢٠٠٧
١٧. عبد الرحمن بن صالح، جماليات خاتمة القصيدة، دراسة اسلوبية في خواتم القرن الرابع الهجري في العراق والشام، دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ص ١٠ سنة ١٤٣٦ هـ
١٨. محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته، منشورات الاختلاف الجزائر، ط ١، ٢٠٠٨
١٩. محمد بن مكرم بن علي (ابن منظور) معجم لسان العرب، تحقيق د احمد سالم الكيلاني ود حسن عادل النعيمي، مركز الشرق الاوسط الثقافي، ج ٢ ص ٤٩ – ٥٠ ط أولى ٢٠١١
٢٠. محمد يحيى زكريا (الرازي) روضة الفصاحة تحقيق : خالد الجبر، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٥، ص ١٥٤
٢١. نعمة رحيم العزاوي، فصول في اللغة والنقد ، المكتبة العصرية ص٢٢٧ ط اولى بغداد ٢٠٠٤
٢٢. هاجر مدقن : (٢٠١٤). حجاج التمثيل في الآداب السلطانية. دار النابغة للنشر والتوزيع ط١، مصر

المجلات والدوريات

١. إيمان عبد الحسين، الاشتغال على العتبات النصية، ماء مبلل بي لرعد البصري إنموذجاً تطبيقياً، مقال منشور، جريدة الزمان الدولية العراقية، السنة السابعة العدد ٤٨٥٧ ١١ يونيو ٢٠١٤ ص ١١ الف ياء
٢. شيماء جاسم خضير، خواتيم القصائد في شعر ابي فراس الحمداني، بحث منشور، مجلة الاستاذ، العدد ٢١٠ المجلد الاول لسنة ٢٠١٤، الجامعة المستنصرية، العراق
٣. علي عالية، التجديد في شعر أبي تمام - مطالع القصائد أنموذجا، مجلة العلوم الإنسانية- جامعة محمد خيضر بسكرة العدد السابع سنة ٢٠٠٥
٤. محمد حسن عطا المنان، بحث منشور، مجلة جامعة كسلا للعلوم الانسانية ، السودان، العدد الأول أبريل ٢٠١٢ ص١٠١
٥. محمود محمد أسد ، تطور مطلع القصيدة من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، مقال منشور، عود البند / المجلة الثقافية الشهرية/ العدد ٦٨ السنة السادسة٢٠١٥
٦. ناهدة فوزي، دراسة هيكيلة في شعر الحبوبي، مجلة دراسات في الادب المعاصر، السنة الثالثة العدد ٩ ص ١ء